رواية تنكرد

للوزير الشهير اللورد بكنسفيلد

الفصل الخامس

لما وقعت عين حواء على هذين الضيفين وعرفت من هما ابعدت عن ابيها وعادت الى مكانها الاول فلم تسمع ما دار بينهُ وبينهما من الحديث . اما ابوها فرحب بتنكرد وقال لهُ اهلاً وسهلاً بضيفنا الكريم فقد اخبرني الامير بحر الدين انك لا تأنف من مشاركتنا في هذا العيد فدعوناك اليوم نقال تنكرد اني اودُّ ان اغتنم كل فرصة لتقديم احترامي لكم وهذه خير الفرص واسرُّها لي . فقال يسوعي قدمت ايها الامير الى الشام

فاجاب تنكرد هذا الصباح اتيناها من حاصبيا

ثم سألهُ عن حواء فامسك يدهِ وسار بهِ الى حيث كانت . وكان الحضور قد عرفوا بقدوم الاميرين وسروا بذلك ولا سيما ابنتا لورلاً فانهما كانتا تودَّان ان تريا اميرًا من بيت شهاب وتحسبان رؤية امير اوروبي مسيحي بارع في كل اساليب التمدن التي ربيتا عليها غاية في البهجة . فلما وقع نظرهما عليهِ ورأيتا ربطة عنقهِ البيضاء وحذاءهُ اللامع شعرتا كأن رأى ينبوع ماء قراح في قفر قاحل

ونظرت حواء الى تنكرد وسعف النخل في يدها وقالت لهُ " هذا عيد من اعيادنا عيد المظال المشهور وقت الاحتفال بنتاج الكروم "

زالت كروم بني اسرائيل لكن الشريعة التي تفرض عليهم عيد الكروم لم تزل حيةً وهم لها خاضعون . شريعة لا تنقض وشعب لا يعرف الارتداد عن شريعتهِ وقد يسهل على الذين لم يزالوا في فلسطين والبلاد المجاورة لها ان يعيدوا هذا العيد ولو لم تبقَ لهم كروم فيها ولكن القاطنين منهم في مدن الشمال سيفي شوارع علاها الدخان والتتام لا ترى الشمس الاَّ نادرًا ولا شمس فيها لانضاج الكروم لا يزالون مضطرين الى اقامة هذا العيد والقيام في المظال سبعة ايام كانهم في مدن المشرق وكان ما حولهم من الاشجار الغبياء نخيل وآس وصفصاف . فتخوا بلاد كنعان منذ ثلاثة آلاف عام ولا يزالون الى الآن يعيدون عيد فتحها واجتنائهم باكورة ثمارها ولو شطَّت بهم النوى الى اطراف بلاد البلاف والكون . شريعة ابدية واجبة الرعاية في كل زمان ومكان

مثل لنفسك رجلاً ولد في حيٍّ من احياء اليهود في مدينة همبرج او فرنكفورت او لندن

او غيرها من المدن الشمالية . ولد للاهانة والازدراء لا تعليم ولا تهذيب ولا شيء ينمي الاخلاق ويهذب الاذواق لا يرى حولهُ الاَّ المرابين او المتعاطين ادنى الحرف . رجلاً تكرههُ وتزدريهِ وتجتنبهُ يأتي عيد المظال فتحنو نفسهُ ويمتلئ فؤادهُ من امجد الآمال واسماها وأسرها وابهاها الآمال التي اوقدت نار الذكاء في قرائح الشعراء وأرت النفوس بهاء الآلهة ينهض في الصباح ويمضي الى سوق الخضر ويبتاع اغصاناً من الصفصاف اوهي بها منذ ايام ويعود بها الى بيتهِ ويكنس ساحتهُ وينصب فيها خيمة تنقها بالازهار والاثمار ويضع فيها الآس والنارنج ويعلق المصابيح ويتعشى فيها مع زوجتهِ واولادهِ كانهُ في قرية من قرى الجليل . ولا يندر انهُ وهو يبارك الخبز حسب عادة اليهود يكسرهُ ويفرقهُ على اولادهِ ويصلي على كاس الخمر كما فعل الملك الذي جاء من نسل داود منذ نحو الفي سنة وقت اكبر عيد من اعياد اليهود او وهو يشكر الله على نتاج الكرمة الذي لم يعد يقطفهُ ولكنهُ موعود بقطفهِ يومًا ما ولا يخلف الله وعدهُ وزوجتهُ واولادهُ يشاركونهُ قائلين اوصنَّا يمرُّ جماعة من الانكليز يقرب بيتهِ فيقول احدهم للآخر ما هذا الصوت وهذه الجلبة فيقول الآخر هذه جلبة هؤلاء اليهود الملاعين عندنا كثير منهم وهم الآن في عيد من اعيادهم القبيحة يجب على والي المدينة ان يمنع مثل هذه الفوضاء ولكن الحال الآن اصلح كثيرًا مما كانت قبلاً فانهم كانوا يخطفون الاولاد ويصلبونهم . اما الآن فصاروا يكتفون باكل المقانق المصنوعة من لحم الخنزير . فيقول الاول اصبت والدنيا كلها سائرة نحو الاصلاح

هذا ولنعدْ الى بيت بسو فنقول انهُ لم يكد تنكرد يرى حواء حتى صدحت الموسيقى وتقدم بسو الى تنكرد والامير فخر الدين واشار اليهما ليتبعاهُ فتبعهُ الرجال اولاً وسار النساء وراءهم وخرجوا الى الحديقة المحدقة بالبيت وهي فسيحة جدًّا لا يرى لها آخر والبيت قائم في وسطها وهو طبقة واحدة لكنهُ كثير الارتفاع وامامهُ سلم مزدوج يصعد بهِ الى سطحهِ وطاف الجمع في الحديقة اولاً ثم عادوا الى السلم وصعدوا عليهِ الى السطح فرأوا انفسهم في جنة أخرى يحيط بها الآس والياسمين في زواياها الاربع اروقة قائمة على اعمدة من المرمر تظللت حولها الازهار والرياحين وهي تطلُّ على احياء دمشق والبساتين المحدقة بها وما وراءها من النجاري والجبال . وكان في وسط السطح خيمة غريبة الشكل طولها اربعون قدمًا وعرضها عشرون قائمة على اثنتي عشرة نخلة تدلت القنوان منها واحاطت الرياحين بها وامتدت بينها اغصان تدلَّت منها قطوف الاثمار الشهية من العنب والليمون والرمان والتين والموز والبطيخ وبين النخل اشجار صغيرة من البرتقال دانية القطوف امتزج زهرها بثمرها وبين الاشجار ابواب قوائمها من ابهى الازهار

واطيبها ارجاً . وفي وسط الخيمة مائدة كبيرة عليها سماط من الدمقس حواشيهِ من الذهب وفوقهُ آثار الفنِّ والمجد صحاف من اثمن انواع الخزف الفرنسي وكؤوس من الذهب الابريز منقوشة في بلاد الانكليز وابارين من البلور البوهيمي وسكاكين من الفولاذ صنعهُ صنَّاع شفيلد تبرق في المدينة التي تضرب بالامثال بلمعان سيوفها . وحول المائدة ارائك من الدمقس الاصفر . هذه خيمة بسو اقامها للاحتفال باليوم السابع من عيد المظال

الفصل السادس

جلس تنكرد عن يمين بسو وجلس سائر الضيوف حولها ولما استقرَّ بهم المجلس قال تنكرد لبسو كان يجب ان نلتقي في القدس ولكن قدَّر ان اقوم بالشكر لك في دمشق

بسو — اخبرتني ابنتي انك لا تكره شيئاً ولهذا تجاسرت ودعوتك الينا

تنكرد — لا استطيع ان افهم كيف يكره النصارى شيئاً تسلموا منهُ الكتاب المقدَّس

بسو — ليس كل الناس مثلك ايها الامير الكريم يعترفون بالفضل لذويهِ

تنكرد — ولكن مَن هم الناس اهم سكان اوربا وهي غياض لا يزال اكثرها موحشاً ام سكان اسيا وهي خراب ودمار

بسو — ولكن سكان الحديد تقطع الاشجار من الغياض وتجعل الموحش آنساً

تنكرد — وما تفعل بالخراب

بسو — لا ينسى الله ارضهُ

تنكرد — اصبتَ والملك لله . من اسيا خرجت الشريعة ومنها يخرج الحق

وسمع القنصل لورلاً بعض ما دار من الحديث بين بسو وتنكرد وكان جالساً امامهما على المائدة فقال لتنكرد آه لو كانت بلادك تفهم المسألة الشرقية كما يجب وهي ابسط مما تظنون ولا بدَّ لي من ان اراك قبلما تعود الى بلادك وابسط لك ما اعرفهُ من هذا القبيل . فاحنى تنكرد لهُ رأسهُ ولم يقل شيئاً . فالتفت هلال بسو الى القنصل وقال لهُ ان مسألتك الشرقية وهمٌ لا وجود لهُ الاَّ في المجالس السياسية . ما لهم وللشرق لا اظن انهم يفيدوننا شيئاً والراجح عندي انهم يضروننا بتعرُّضهم لشؤوننا

والتفت فخر الدين الى مدام مراد فارحي وكانت جالسة بجانبهِ وقال لها ما احسن ان يكون الانسان بين اهلهِ واصدقائهِ فاني احسب بسّو مثل ابي واعدُّكم كلكم مثل اهلي ثم سألها عن زوجها وقال انهُ يحبُّهُ ويحترمهُ وطلب منها ان تخبرهُ بذلك

وقالت ترازه لورلاً لاختها (مشيرة الى تنكرد) ما اجمل هذا اللباس وهذه القامة فقد

تعبنا من رؤية القناطين والعمائم . هذا هو اللبس الذي يليق بالرجال واما اللبس الذي نراهُ حولنا فمثل ثياب الممثلين في المراسح

وقال موسى لورلاً لاختها صوفيا انا احب الافرنج واودُّ ان يقتدي بهم اهالي بلادنا في امور كثيرة ولكن لا اظن ان لبسهم احسن من لبسنا . فاجابتهُ تريزا قائلة كيف تقابل لبسنا بلبس الافرنج يا عمي أعندنا شيء مثل هذه الربطة البيضاء وهل تقابل بوابيجنا ولو كانت مزركشة بالقصب باحذيتهم اللامعة . ثم التفتت الى اختها وقالت لها لا بدَّ من ان يكون هذا الامير قد سئم الاقامة في هذه البلاد . فاجابتها نعم فانهُ لا بالأت عندنا ولا مراسح للتمثيل ولا ادري ما حملهُ على المجيء الى هذه البلاد

تريزا — اظنهُ يحب واحدةً لانني اراهُ كاسف البال

صوفيا — كاسف البال لانهُ لا يرى احدًا يقدر ان يكلمهُ كلمة

تريزا — لا احد يستطيع الكلام معهُ الاَّ هلال بسوفانهُ رجل مثقَّف وقد تكلمت معهُ قبل العشاء فاخبرني انهُ قضى فصل الشتاء في بيروت ومضى الى كل البالأت

القنصل لورلاً — ان اللورد بامرستون يعرف المسألة الشرقية الى حد محدود ولو كنت في خدمة الملكة لاخبرتهُ امورًا أُخرى عنها

فخر الدين — انا لا اطيق ان يذكر احد اسم بامرستون أليس في الدنيا وزير غيرهُ . وماذا يعرف عن المسألة الشرقية وهو لم يأتِ قط الى بلاد الشرق

القنصل — لا يخفى عليك ايها الامير ان الوزراء يعرفون كثيرًا عن المسائل الهامة مثل المسألة الشرقية ولكنهم لا يتذاكرون فيها الاَّ في مجالسهم الخاصَّة

فخر الدين — يمكنني ان احلَّ المسألة الشرقية في شهر من الزمان اذا اردت

فضحك القنصل لورلاً وقال " ولكن ما هي المسألة الشرقية "

وقال هلال بسو انا ارى انهُ الافضل لنا ان لا يحلَّ شيء بل تبقى الامور على حالها

فخر الدين — يراد بالمسألة الشرقية مَن يستولي على البحر المتوسط وهناك بلادان فقط تستطيعان ذلك سورية ومصر . اما الانكليز والروس والفرنسويون والنمسويون فكلهم غرباء عن هذه البلاد يأتون ويمضون . وسورية ومصر باقيتان في مكانهما

القنصل — ولكن مصر جرَّبت فما نجحت

فخر الدين — والآن دور سورية ولا بدَّ من النجاح

فالتفت بسو الى تنكرد وقال لهُ هل تزور مصر بعد عودتك من الارض المقدسة

تنكرد — لست عازماً على العودة من هذه البلاد ولكنني اريد ان ازور مصر فانها بلاد حيَّرتنا في اوربا وقد تغيرت كثيراً منذ عهد قريب

فهزَّ بسو رأسهُ وقال ان مصر لا تتغير ابداً وهي الآن كما كانت في ايام الفراعنة في ادارتها واحكامها ووزيرها من اليهود

تنكرد — أفيها وزير يهودي

بسو — نعم وهو ارتين بك الوزير الحالي وقد كان سفيراً لمحمد علي في باريس وهو امهر رجال السياسة في بلاد المشرق واشدهم دهاء هذا الرجل خلف يوسف وهو من ذريته

تنكرد — اذاً هو من جملة الوزراء الذين يعدّهم صاحبك الصيدوني من اليهود

بسو — نعم ولسنا غرباء عن حكومات العالم بل لنا نصيبنا منها

تنكرد — يظهر لي انكم تحكمون الدنيا كلها ما عدا بلادكم

بسو — وكان يمكننا ان نحكمها منذ سنتين ولكن ما لنا ولهذا الموضوع وهو ليس مما يهمك

تنكرد — مَن قال انهُ لا يهمني واي موضوع يهمني اكثر منهُ فان حكومة هذه البلاد همَّت واحدٌ من اسلافي منذ ستمئة سنة حتى استلَّ سيفهُ واتاها

وكانت الكواكب تتلألأ فلا يرى بريقها بين مئات المصابيح المتألقة في الخيمة والاروقة التي حولها واتكأ الضيوف على البسط بعد الطعام وجعلوا يدخنون التتباك المطيَّب بالندّ والعود وتقدَّم التنصل لورلاّ الى تنكرد وعرَّفهُ بابنتيه فجعلتا تكلمانهِ عن المراقص والمراسح لكي لا يحسب ان دمشق خالية من كل آثار التمدُّن وقبل ان يُحصر عن مجاراتهما في الحديث طلب منهما ان يتحفا الجمع بشيء من غنائهما فاعتذرتا اولاً بانهما لم تغنيا قط خارج البيت ثم اجابتا الطلب واغنتم تنكرد هذه الفرصة ودنا من حواء فرآها تتكلم مع اخت هلال ومدام نسيم فارحي فقال لهنَّ ان ابنتي لورلاّ على غاية من الظرف والتهذيب ولكنني افضل سماع التراتيل والتسابيح في دمشق على سماع الاغاني

حواء — وفي اوربا ايضاً افضلُ غنائكم متعلّق بتاريخنا

تنكرد — نعم ولا شيء يُعبَّر بهِ عن تلك المواضيع السامية غير الشعر ولا فلم يصفها ما لم يؤيد بالالهام

مدام وازل فارحي — عندنا صلاة اسمها صلاة موسى في مصر سمعتُ بنتي لورلاّ تنشدانها مرةً ولا احلى منها

حواء — يا حبذا لو اتحفتانا بها سأقول لهلال لكي يطلب ذلك منهما . ثم اشارت اليهِ

فدنا منها ولما سمع ما قالت ضحك وقال انها ستخفاننا الآن بدور بديع من دون باسكل . ولا بأس بالصلاة ولكن الغناء المعروف بالسرياد اليق بنا الآن

والتفتت حواء الى تنكرد بعد حين وقالت له كيف رأيت الي فقال لها هو عين الرجل الذي وصفهُ لي الصيدوني يستحق ان يكون ابًا لكل بل ابًا للناس كلهم

حواء — ودَّ كثيرًا ان يراك وقد سُرَّ برؤيتك سرورًا عظيمًا

تنكرد — كان يجب ان اتعرَّف به قبل الآن وان امضي الى بيتكم حالما وصلت الى القدس واتعرَّف بكم ولكن اللوم عليَّ لانني لم افعل ذلك

حواء — نشكر الله لاننا التقينا كانا الآن ولانك صرت تعرفنا ولو قليلاً حتى اذا رجعت الى بلادك تستطيع ان تدافع عنا اذا اساء الناس ظنهم بنا واضطهدونا زاعمين اننا نصلب اولادهم في عيد الفصح كما فعلوا منذ سنين قليلة

تنكرد — لستُ عازمًا على الرجوع الى بلادي واذا اضطهدوكم فارجو اني استطيع الدفاع عنكم ولو كنتُ هنا

جوٌّ صافٍ ونسيم بليل وازهار زاهرة وثياب فاخرة وجواهر متألقة ووجوه متألقة وكل مجالي العظمة والجلال والتيه والدلال كل ذلك ادهش تنكرد فوقف مبهوتًا ثم التفت الى اخت هلال وقال لا ينقصنا لاتمام بهجة هذه الليلة الاَّ جمال اولادك فاين هم

قالت هم نيام ولم يفقدوا شيئًا لانهم يحلمون الآن بالاغاني والازهار كما كانت ملكة سبا تحلم بها

وقالت حواء يقال ان اولادنا يكونون في صغرهم من اجمل الناس ولكنهم متى كبروا فقدوا كثيرًا من جمال الصبا لاننا نرمج في اذهانهم انهم شعب مهان فنظلم عيونهم و يعتاضون عن البهجة والحبور بالهموم والغموم لعلمهم انهم مطرودون من بلادهم مشتتون في اقطار المسكونة مضطهدون من كل الشعوب ولكن لو رفعنا قلوبهم عن حطام هذه الدنيا وعلمناهم ان يحترموا انفسهم لبقيت وجوههم طافحة عليها سيماء البشر والسرور

خرج هذا الكلام الفريد بل هذا الدر النفيد من فم زانهُ محيًّا كلهُ بشر ومهابة فنظر تنكرد اليها وقد جمعت افكارهُ حولها كل ما رآهُ منها من اول ساعة اكتحلت عينهُ برؤياها الى الآن في بيت عنيا وفي قفار بلاد العرب لما وقفت امامهُ تنظر اليهِ نظر الحنو والشفقة بعد ان شفتهُ بدوائها واعتنائها وكلتهُ في اسمى المواضيع واقربها الى فؤادهِ . نظر اليها الآن فصعد الدم الى رأسهِ وحصر عن الكلام ولكنهُ تنهَّد من كبد حرَّى

وحينئذٍ جاء هلال وفخر الدين وهما يكادان يرقصان طرباً ومدَّ هلال يدهُ الى حواء وقال اذا اردتُنَّ ايتها السيدات ان ترين سلة العرس التي وصلت الآن من مرسيليا فاتبعننا فقد اختارتها لي زوجة سفير النمسا المقيم الآن في باريس وما هو نفع السفراء اذا كانوا لا يقضون حوائجنا

وسار هلال مع حواء وتبعتهما امنهُ ومدام نسيم وبقي تنكرد وفخر الدين وراءهما فقال تنكرد من هذا الشاب . فاجابهُ فخر الدين هو خطيب حواء الذي سابني اياها ولكي ارجو ان يتبناني ابوها بعد زواجها وانا ابنهُ على نوع ما لان زوجتهُ ارضعتني وربتني . واذا لم يتبنَّني فلا اقلَّ من ان يوفي ديوني . ولما قال ذلك سمعوا ضحكاً وقهقهة في الجانب الآخر من الخيمة فقال فخر الدين لتنكرد انظر كيف اجتمعوا حول سلة العرس حتى نسيم فارحي اجتمع معهم ولا بدَّ لي من ان آكل هذا الرجل فانهُ ليس مثل اخيهِ مراد الذي لا يفرق عن الحجر ولا نقدر ان نقنعهُ بشيء ولا اتخذتْ زوجتهُ واسطة لاقناعهِ . تعال معي

تنكرد — اذهب وساتبعك . قال تنكرد ذلك وخرج الى رواق من الارزقة القائمة فوق زوايا السطح ونظر الى ما حولهُ وكان القمر قد طلع من الافق واستطارت اشعتهُ على رؤوس المآذن وقباب الجوامع فشملت بعضها بوشاح من اللجين وبقي البعض الآخر ملتحفاً بديباجير الدجى ووراء المدينة غوطة الشام باشجارها البواسق وقصورها الشواهق ووراء الكل بادية الشام متبسطة كبحر لهُ اول وليس لهُ آخر

وقف تنكرد هناك وقد علت جبينهُ سحابة من الكآبة فاستند الى عمود من اعمدة الرواق وتنفَّس الصعداء وهو يقول في نفسهِ اواهُ يا دمشق لو كنتُ مكانكِ ما تركت حلب تسابني هذه الجوهرة ولكن لا بدَّ من انزع ذلك من قلبي لانني تخلوق لامور أخرى

الفصل السابع

لما وصل باروفي الى دمشق اغتسل وهذَّب لحيتهُ واعتمَّ بعمامة بيضاء واستأجر حماراً وسار في اسواق المدينة من سوق الى آخر كأنهُ سائر في طريق بيتهِ . والاسواق ضيقة مزدحمة باقدام المارَّة ودكاكينها مشحونة بالبضائع الشرقية والغربية من الاسلحة والاقمشة الحريرية والقطنية من الهند ومنتشرة عدا البضائع الشامية المختلفة . وما زال يسير الى ان بلغ سوقاً قليلة الازدحام عالية السقف وهي سوق العطارين حيث تباع العقاقير والطيوب والاصباغ وهناك رجل لابس ثوباً احمر عنابياً اطرافهُ مبطنة بالفرو وعلى رأسهِ عمامة قاتمة اللون وهو اقنى الانف ازرق العينين . فلمَّا وقعت عينهُ على باروفي سلَّم عليهِ ورحَّب بهِ واجلسهُ معهُ وسألهُ عن

سلامته وعمَّا اذا كان قد عاد الى الشام منذ زمن طويل . فقال باروني كلاَّ وهل انت باقٍ هنا منذ افترقنا آخر مرة فقال كلاَّ ولكنني كنت اتردد على الشام . فقال باروني وكيف اصعابك في الجبال . فقال بين بين . فقال باروني اذًا الحال ليست على ما يرام . فقال وانتَ هل مضيت الى بلاد الافرنج . فقال باروني انا دائمًا في بلاد الافرنج وماذا تريد من ذلك فقال الرجل ألاَ تعرف احدًا يشتري مني رزمة من اجود انواع السمّوريا (١) فقال باروني أليس فيها نشاء ولا مرٌّ . فقال الرجل اتظن انني يهودي . فقال باروني اني لا اعرف من اي امةٍ انت يا صاحبي دركوش اما من جهة السمّوريا فاظن انني اجد من يشتريها منك ويشتري ايضًا كل ما عندك من الكثيراء والعنص . فقال دركوش اما الكثيراء فلا احد في الشام عندهُ كثيراء نقية غيري واما العنص فكل احد يظن انهُ تاجر عنص ولكن هل عنصهم من حلب مثل عنصي

باروني — اصبتَ يا دركوش وانا اعلم انك لا تتكلم الاَّ الصدق ويمكنني ان اشير على كل احد ان يبتاع البضائع منك بضمير صالح وقد حلتْ امس اننا ستعامل معاملة ماليَّة اليوم

دركوش — وانفع الاصدقاء اذا كانوا لا ينفعون بعضهم بعضًا فقد قيل ان الصديق لوقت الضيق

باروني — لا فُضَّ فوك وانا الآن في اشد الضيق فاني مسافر مع امير انكليزي وقد اقسم ان يمحوا اثري ما لم اجد لهُ سبيلاً لزيارة بلاد النصيرية

دركوش — دعهُ يزرْ سليمان الحكيم في بلاد الجان قبلما يزور بلادنا

باروني — اظن انهُ يزوره ويزورها لانهُ رجل عنيد يفعل كل ما يريد ولكن لنرجع الى السمّوريا اظن ان اجود انواعها في بلادكم ويمكننا ان نبتضع منها قدر ما نريد ولكن اذا كانت زيارتها غير ممكنة فما في اليد حيلة

دركوش — غير ممكنة

باروني — لنرجع الى السمّوريا ألاَ تتذكر سيدي القديم يادركوش

دركوش — نعم اتذكرهُ مع انني كثير النسيان

باروني — وهذا الامير الذي انا مسافر معهُ الآن هو صديق لسيدي القديم فاذا كنت تخدم هذا فكأنك خدمت ذاك

دركوش — من الامور ما يمكن ومنها ما لا يمكن

باروني — لنرجع الى السمّوريا ولكن لما كان سيدي ذاك عازمًا على زيارة بلادكم منذ

(١) السمّوريا نوع من النباتات الخدّر

خمس عشرة سنة لم يكن تقول لا. ولولا الطاعون لزارها

دركوش — سبحان من يغيّر ولا يتغير

باروني — سبحانهُ على كل حال . فلنرجع الى الفصيرية ان للفصيرية اصدقاء كثيرين في غير هذه البلاد فاذا لم تسمعوا لهم خسرتم كثيراً ومهما يكن الحال فانا مضطر ان اسهّل لهُ هذه الزيارة ولو دفعتُ الف غرش والاّ قطع رأسي

دركوش — امراء الافرنج لا يقطعون الرؤوس بل يتفنون اعدامهم الى الجزائر التي تسكنها الشياطين

باروني — ولكن هذا الامير هو اخو ملكة الانكليز على ما يقال

دركوش — فاذاً انت من خدّام الملكة

باروني — نعم وانت ايضاً من خدّام ملكة على ما اسمع

دركوش — نعم وهذا هو السبب في امتناعي عن اعطائكم الجواز الذي لم امتنع عن اعطائهِ في عهد ابيها

باروني — وهل هي صارمة الى هذا الحد

دركوش — نعم ولا تريد ان ترى المسلمين ولا النصارى وهي الآن في حرب مع الاثنين وستبقى في حرب مدى العمر لان هذه الحرب لا يستطيع احد ان يزيل اسبابها

باروني — وما هي هذه الاسباب

دركوش — انما تعلمها في جبال الفصيرية

فاخذ باروني يفكر في الامر ثم قال لهُ الآن فهمتُ ما لم افهمهُ قبلاً فان الامير الذي انا في خدمتهِ صديق لقومك و يعلم لماذا انتم في حرب مع المسلمين والنصارى وهو قليل الكلام غامض الافكار صعب المراس جدًّا لم اتجاسر ان اسألهُ لماذا يريد ان يزور بلادكم ولكن الآن فهمتُ مما سقط منك انهُ واحد منكم وقد جاء من بلاد بعيدة ليزور ابناء جنسهِ .وهو عظيم بين قومهِ ترى الدنانير في يدهِ كالماء ولا شبهة عندي في ان لهُ شأناً كبيراً مع ملكتكم ولكن اذا كانت زيارتهُ غير ممكنة فما في اليد حيلة فلنتركها ونرجع الى الفصيرية

فقال دركوش بصوت منخفض اتظن انهُ واحد منا . فقال باروني نعم هذا ظني . فقال دركوش لا سبيل الى الجواز ولكن اذا كان هذا الرجل واحدًا منا فلا بدَّ لي من ان اراهُ فاين يمكنني ان اقابلهُ

باروني — هذا كلام لا يمكنني ان اتولاهُ لهُ . فقد اشرتُ اشارة خفيفة الى المجيء الى

هنا تقطب جبينهُ وعبس كأنهُ ابليس اللعين وكاد الشرر يتطاير من عينيهِ . ولكن اذا كانت زيارتهُ غير ممكنة فما في اليد حيلة ولا بدَّ لهُ من العودة الى بلادهِ من غير ان يرى ملكتكم مع انهُ قد يكون اخاها وسيبقى عمرهُ كلهُ كارهاً للمسلمين والنصارى ولكن لا بدَّ لهُ من ان يذهب الى جزيرة تسكنها الابالسة

دركوش — لا بدَّ من اطلاع الملكة على هذه الامور كلها وانتظار اوامرها

باروني — انتظار اوامرها ماذا تعني يا رجل انت لا تعرف طبع سيدي فانهُ اعمى من النار ولذلك قلت انهُ منكم فكيف يصبر حتى يفهي الرسول و يرجع مسافة ثلاث مئة ميل فضلاً عن التأخر الذي ينشأ من تردُّد امرأة وملكة

دركوش — غدًا اخبرك باوامرها قبلما تغيب الشمس والآن هات اخبرني كم اقة تريد من السقمونيا

باروني — كل ما تقدر ان تبيعني اياهُ والثمن نقدًا ادفعهُ لك غدًا وابقِ البرش عندك الى ان ازور الشام مرةً اخرى

فوضع دركوش النار جنبهُ جانباً واخرج خمامة من جيبهِ واوقفها على يدهِ وقال لباروني غدًا يأتينا الجواب من الملكة وسارسل اليك الجواب الى الخان عند غروب الشمس

القسم الخامس

الفصل الاول

فارسان في شعب بين الجبال لابسان لباس الاكراد مع كلٍّ منهما رمح طويل وسيف احدب وفي منطقتهِ فردان وامامهما سهل ضيق ووراءهما نجود فسيحة تصل الى جبال شاهقة . البلاد كلها موحشة لا انيس فيها غير الصخور السوداء والتلال الجدباء تطل عليها قنن شاهقة كأن الثلج حاماتها فزاد منظرها رهبةً ووقارًا . لكنَّ الموغل في هذه البلاد يرى فيها اودية كثيرة الجداول حولها الحدائق والبساتين وهي كثيرة الزرع والضرع حتى جوانب الجبال والآكام لا تخلو من اغراس الزيتون والعنب والتين وفيها القرى الكثيرة السكان وهم اهل زراعة يزرعون القطن ويحلجونهُ و ينزلونهُ وينسجونهُ و يصنعون ثيابهم منهُ و يصدرون من بلادهم كثيرًا من الحبوب والصموغ والشمع والصوف . دار بين هذين الفارسين الحديث الآتي

قال احدهما " رأيت فارسين على جبل كفلس هذا الصباح فما مفاد ذلك " فاجابهُ الآخر

" مفادهُ الفوز للكتتاقان كان هؤلاء الافرنج يدفعون الاموال الطائلة لان يريهم بعض الاعمدة في برية تدمر فلا يبعد ان يعطونا مفاتيح خزائنهم اذا ادخلناهم بلاداً لم يدخلها احد قبلهم "

" ولكن يقال ان احدهما واحد منا "

" لم يقل احد قبل الآن انهُ يوجد احد منا في بلاد الافرنج لان الافرنج كلهم نصارى وكانوا متوحشين قبلما تنصروا "

" ولكن الوزير كفرنيس امر بان يحرّس هذان الرجلان كأنها الملكة نفسها وقال ان احدهما امير افرنجي وانهُ واحد منا "

" عاش ابي مئة سنة وعشر سنوات وكان لهُ اربعة وعشرون ولداً ولما حضرتهُ الوفاة قال لنا شيئين الاول ان لا ننسى اصلنا والثاني انهُ لم يدخل بلادنا اجنبي في زمانهِ "

" هوذا النسران طائران فوق جبل كفلس فلا بد من ان يكون هذان الغريبان قد صارا قريبين منا "

" عسى ان لا يلحق بنا ضرر من زيارتهما "

" هل ترتاب فيهما "

" نعم وقد كنا وحدنا وخير لنا ان نبقى وحدنا "

" صدقتَ وقد ذهبتُ مرةً الى حلب ولا اريد الذهاب اليها مرةً اخرى "

لا شيء مثل الجبال جبال آبائنا واجدادنا وما فيها من الطيبات لا مثيل لها في اسواق حلب ولا في جنائن الشام

" نعم ولا مثل ملكتنا ولا شبيه لها الاّ ... لكنني لا اسميهِ وانت تعرفهُ "

" نعم وعندنا اشياء لا تُعرَف في اسواق حلب ولا توجد في جنائن الشام "

وكانت الحمامة قد وصلت الى ملكة النصيرة ببطاقة من دركوش يقول لها فيها انهُ رأى اميرين احدهما من لبنان والآخر من بلاد الافرنج وهما يرغبان في دخول بلادها والمذاكرة معها في بعض المهام وانهُ يعتقد ان الافرنجي منهما واحد من النصيرية المتسمهم. وفي مساء اليوم التالي عادت حمامة اخرى بجواب الملكة وهي تأمر دركوش ليجيز لهما الدخول الى بلادها ومعهما اثنان من اتباعهما لا غير. فقاما من دمشق ومضى معهما باروني وسارا نحو جبال النصيرية وعرّجا على حماه وحلب اولاً لان تنكرد كان يريد مشاهدتها قبل ان يضطر الى مغادرة البلاد. ثم سارا من حلب وعبرا نهر الكويك. وكان الجفاء مستحكماً بين والي حلب وملكة النصيرية لان الوالي طالب الجزية من بعض القرى التي يدّعي النصيرية انها من قراهم وانها

داخلة في العهدة التي عُقي النصيرية بموجبها من دفع الجزية للحكومة العثمانية فجعل النصيرية يشنون الغارة على سهول حلب واتحدوا مع الاكراد على مناوأة الاتراك لكن دوكوش اعطى باروتي رسالة الى عميل النصيرية في حلب وهو رجل داهية فسهّل لتنكرد ورفاقه الوصول الى جبال النصيرية فوصلوها سالمين بعد أن لقوا في طريقهم من المخاطر ما ايقظ نخوتهم وبسالتهم وزاد اهجتهم وطلاقتهم . وهذا شأن اولي الهمم والعزائم فان سيف العزيمة يصدأ ان لم يجرَّد من غمده . وكان تنكرد وفخر الدين راكبين جوادين كريمين يخطران بهما تيهاً ودلالاً وقد لعبت برأسيهما نخوة الشباب فلما دخلا الشعب قال تنكرد ما احصن هذا الموقع فقال فخر الدين نعم ولا تدري ما وراءه . وكان الشعب قصيراً فقطعاه سريعاً وبلغا مجدداً تحدق به الجبال الصخرية من كل ناحية وعلى واحد منها حصن كبير وكانت طريقها توصل اليه كلما قربا منه وجدا اكثره منقوراً في الصخر حتى ابراجه ومتاريسه والطريق اليه متعرجة فوصلا اولاً الى باب كبير غلقاه من الحديد ففتح لهما ودخلا منه الى سرداب طويل مظلم لا يسع الا فارسين يمران فيه وسار امامهما انانس بالمشاعل الى ان بلغا ساحة كبيرة مكشوفة تنصب عليها اشعة الشمس وحولها ابنية كثيرة مختلفة الاشكال والاقدار والمقابل منها للسرداب برج رفيع . وكان في الساحة قليل من الفرسان وكثير من الخدم والحشم فاقبلوا على تنكرد وفخر الدين وساعدوهما على الترجل . وداخل تنكرد بعض الشك ونظر الى فخر الدين فرآه مرتاباً مثله لكنهما سلَّما امرهما للاقدار وسار بهما الخدم من غرفة الى اخرى ومن رواق الى آخر الى ان بلغا داراً داخلية غرس فيها شجر السنط وادخلوهما مقصورة تطل عليها وقدَّموا لهما الشيقات والقهوة وبقي باروتي مع الاتباع في الدار الخارجية . وجاءهما رجل طويل القامة نحيف الجسم يمشي الهوينا فدخل المقصورة وحيّاهما ورحّب بهما وجلس معهما . وكانت لوائح العظمة والمهابة تلوح على وجهه وتظهر من كلامه كأنه ربُّ المكان . فقال له تنكرد " اظن انني انا والامير فخر الدين مشرفان الآن بالكلام مع الوزير كفرنيس " . فاحنى لهما رأسه وقال " عسى ان لا ينتظر امير انكلترا في هذه الجبال شيئاً من الملاذ التي يراها في بلاده حيث يكثر العبيد فيقضون الاعمال كلها على اتم المراد وهذا امر تمتازون به علينا نحن سكان هذه الجبال ولا سيما بعد ان حُرمنا من الموانئ البحرية ولم نعد نستطيع ابتياع العبيد من التركمان والاكراد

فقال فخر الدين " اظن ان الروس ناظروكم في ذلك وغلبوكم " . فقال كفرنيس لقد اصاب الامير في ما قال فان الروس ملأوا دورهم الآن بالعبيد والجواري من شمالي اسيا

تنكرد — يظهر ان الوزير كفرنيس سافر اسفاراً طويلة

كفرنيس — لقد اصاب الامير الانكليزي في ما قال فاني قد زرت كل مدن الشام ما عدا القدس التي لا اريد ان اراها ولا تصلح الاّ ان تكون مزوراً للخنازير

فاضطرب تنكرد من هذا الكلام ولكنهُ ملك نفسهُ ولم يفه بكلمة

فخر الدين — وهل اتيتَ جبل لبنان

كفرنيس — نعم ايها الامير وكنت ضيفاً على الامير بشير وتذاكرنا في امور ذات شأن ولو ثمّ ما كنتُ تنويهِ ما كان الامير اسيراً الآن في استانبول

فخر الدين — ولماذا لم يتم الاتفاق بينكم فانكم لو اتفقتم لملكتم اسيا كلها

كفرنيس — لقد اصاب الامير الكريم في ما قال فان قوة النصيرية عظيمة جداً

تنكرد — يقال ان عند ملكتكم خمسة وعشرين الف فارس فهل ذلك صحيح

كفرنيس — نعم خمسة وعشرون الف فارس وكل واحد منهم يقام ثلاثة من الدروز او تسعة من الموارنة

فاستشاط فخر الدين غضباً من هذه المضاهاة وقال لهُ ان رجالكم لا يساوون قشرة بصلة ولكن دخل حينئذٍ اربعة عبيد واربع جواري ومعهم كؤوس الشراب من عند الملكة فلم يسع كفرنيس ما قالهُ فخر الدين وتقدّم العبيد والجواري وقدموا كؤوس الشراب وهو مبرّد بالثلج ثم عادوا من حيث اتوا . وذُكِرَت الملكة فقال كفرنيس انها لا تراها ذلك اليوم وقد لا تراها في ذلك الاسبوع بل في الاسبوع التالي . فقال تنكرد أهي اول ملكة ملكت على النصيرية . فاجابهُ كفرنيس نعم هي اول ملكة بعد احتلالنا هذه الجبال . فقال فخر الدين واين كنتم قبل ذلك . فقال كفرنيس كنا في مدن لا يمكن ان ننساها ولذلك لا يمكننا ان نذكر اسماءها

وكان تنكرد وفخر الدين يودّان ان يعرفا اسم الملكة ولكنهما لم يريا من الكياسة ان يسألا وزيرها عنهُ . وحاولا وهما آتيان الى جبال النصيرية ان يعرفا اخبارهم فكان كل احد يقصّ عليهما من الاخبار ما يناقض ما قصّهُ غيرهُ حتى تعذّر عليهما معرفة الحقيقة وقد كلمهما الوزير كفرنيس كلاماً طويلاً ولكنهُ حشاهُ بالتجمّل والتفخيم حتى لم يفهما شيئاً منهُ ولم يعرفا من امر النصيرية شيئاً

الفصل الثاني

" قومي نذهب من هنا يا شبرا فقد ضاق صدري واضطرب فؤادي "

" لا بأس عليكِ يا مولاتي فما هي الاّ بغتة ثمّ تمضي "

" بغتة اهكذا تكون البغتة اذاً لم أُبغَت في حياتي "

" ويظهر لي انها انبعثت كما انبعثنا "

" اصمت يا شبرا ولا تضحك لئلا يسمعا صوتك "

" اتسمين هذا ضحكاً يا مولاتي اذاً لم اضحك في حياتي "

" عسى ان لا يرياننا ولا يسمعانا "

كانت المتكلمة ملكة النصيرية نفسها وهي فتاةٌ في الثامنة عشرة من عمرها اسيلة الخد واضحة الجبين سوداء الشعر بعينين مكحولتين كالنفنج . وقد سدلت على وجهها نقاباً يحجبهُ عن الانظار . تكلمت بذلك وهي سائرة مع واحدة من جواريها بعد ان اطلّتا على المقصورة التي فيها تنكرد وفخر الدين من حيث تريان ولا تُريان . واتفق ان فخر الدين نهض من مجلسهِ فذعرتا وعدتا وسارتا في رواق طويل يؤدي الى غرف كثيرة ومنها الى رواق آخر يطل على حديقة غناء زرع فيها الآس والياسمين فلما بلغتاهُ جلست الملكة على ديوانٍ فيهِ وتنفست الصعداء وهي تقول لا بدَّ من انهم رأونا يا شبرا . فقالت شبرا كلاَّ مولاتي ولا يمكن ان يكون قد رآنا احد . فقالت الملكة ولكن لا بدَّ لها من ان يرياننا ولا ادري كيف اقابلهما اذا كان فؤادي يضطرب كذلك . فقالت شبرا دعيهما ينتظرا بضعة ايام حتى تألفي منظرهما . فقالت لا يمكن ان آلف منظرهما ولا يليق ان ندعهما ينتظران طويلاً . وقد كان عذرنا امس انهما متعبان من وعثاء السفر ولكن اي عذر نجدهُ اليوم يا شبرا

شبرا — اذا كنتِ اليوم تعينين الوقت الذي تقابلينهم فيهِ فلا اظنهما يكونان غير راضيين

الملكة — ولكنني انا لا اكون راضية لانني لم اعُدّ استطيع صبراً بل لا بدَّ لي من رؤيتهما

شبرا . اذاً مُري كفرنيس باحضارهما

الملكة — اسمعي ما هذا الصوت

شبرا — هذا صوت الغزال في الحديقة فلا تجزعي

الملكة — يا حبذا لو كنتُ اياهُ ولكن هاتِ اخبريني ممن منهما تظنين انهُ منا

شبرا — كلاهما غاية في الجمال والظرف ولكن الاشقر منهما يشبهكِ يا مولاتي في ملامحهِ

الملكة — ولذلك تظنين انهُ هو الذي منا

شبرا — اود ان يكون كلاهما منا يا مولاتي

الملكة — ولكن ألا يخطر لكِ يا شبرا انكِ رأيتِ صورة هذا الشاب قبلاً . راجعي فكركِ

شبرا — بلى يا مولاتي .

الملكة — مَن هو الذي ذكر اسمهُ في اذني

فتقدمت شيرا الى مولاتها واسرَّت في اذنها . فعلت وجه الملكة حمرة الخجل وتبسمت وقالت نعم فهو اذًا واحد منا

الفصل الثالث

بينما كان تنكرد وفخر الدين يفكران في ما يفعلان مدة اسبوع الى ان تأذن لهما الملكة في مقابلتها اتاهما الوزير كفرنيس وقال لهما ان الملكة اذنت في ان يقابلاها ظهر اليوم التالي . وفي الوقت المعين جاء بهما ومعهُ بعض الحاشية وصعدوا بهما على سلَّم رفيع وساروا في رواق من الخشب ثم نزلوا على سلَّم آخر ودخلوا مقصورة كبيرة فلقيهم الغلمان ودخلوا بهما مقصورة أُخرى اكبر من الاولى انتظارا فيها مدة وجيزة ثم أُذن لهما في الدخول الى حضرة الملكة

وكانت جالسةً في ديوانها لابسةً حلة من الارجوان وشعرها الاسود الطويل مسدول على كتفيها وفوق جبينها اكليل من الذهب وكان عن يمينها وزيرها كفرنيس ورئيس الحرس الخاص ورجل آخر طويل اللحية ابيضها كانهُ كاهن عظيم الشان ووراءهم كثير من رجال الحاشية وعن يسارها ثلاث من جواريها ووراءهنَّ كثيرات من الجواري الحسان ووراء الجميع جمهور من الرجال بالعمائم البيضاء والثياب السوداء

ولما مثل تنكرد وفخر الدين في حضرة الملكة خاطبهما الوزير كفرنيس قائلاً " ان جلالة الملكة العظيمة الشان تطلب من حضرة الزائرين الكريمين ان يجلسا في المجلسين المعدين لهما " والحال اشير الى تنكرد فتقدم الى مجلس عن يمين الملكة مقابل لها وجلس فيهِ وتقدم فخر الدين الى مجلس آخر عن يسارها وجلس فيهِ وكان فخر الدين لابسًا ثيابهُ الشامية المقصبة ومتقلدًا اسلحتهُ المذهبة وتنكرد لابسًا ثيابًا اوربية مقصبة ايضًا وعلى رأسهِ الريشة الكبيرة التي يلبسها فرسان اليومنري

والتفتت الملكة الى تنكرد وقالت لهُ انت من امراء الانكليز فقال نعم انا من الانكليز ومن رعايا الملكة لاننا نحن خاضعون لملكة مثل جلالتك

ثم التفتت الى الامير فخر الدين وقالت ان آبائي وبيت شهاب كانوا دائمًا اصدقاء فقال فخر الدين وعسى ان تدوم هذه الصداقة ابد الدهر لانهُ اذا اتفق الشهابيون والنصيرية صارت بلادنا جنة من الجنان

والتفتت الى تنكرد وقالت انتم تقضون جانبًا من العمر في السفن . فقال نعم نحن سكان جزيرة وحصر عن الكلام فقال الوزير ان الانكليز يقيمون في السفن ستة اشهر فقط من السنة

ولا سيما حينما يعضون الى الهند واما بقية شهور السنة فيقضونها في يوتهم

فقالت الملكة اذًا انتم تمضون الى الهند في السفن . فاحنى تنكرد رأسهُ فقالت وهل ملكتكم من عمري . فقال كانت من عمر جلالتك لما ملكت . فقالت وكم مضى عليها مالكة . فقال سبع سنوات . فقالت وهل تسكن في قلعة فقال نعم ان جلالتها تقيم غالبًا في قلعة شهيرة . فقالت ولا بدَّ من ان تكون منيعة فقال نعم

والتفتت الى فخر الدين وقالت لا يزال الامير بشير في استانبول فقال اظنهُ الآن في بورصة . فقالت وهل هو مبسوط هناك . فقال ليس كما كان في استانبول . فقالت وهل استانبول اكبر المدن فقال لا اظن . فقالت اي مدينة اكبر منها . فقال مدينة لندرا اكبر منها وهي عاصمة الانكليز وتليها مدينة باريس عاصمة الفرنسويين . فقالت كم عدد سكان استانبول فقال خمس مئة الف

والتفتت الى تنكرد وقالت لهُ هل رأيت انطاكية فقال لم أرها حتى الآن . فقالت وهل رأيت بيروت . فقال نعم . فقالت ان انطاكية تظهر الآن اصغر من بيروت ولكنها كانت قديمًا اكبر من استانبول ولا يبعد انها كانت اكبر من عاصمتكم الآن . فقال نعم وكانت اجمل منها كثيرًا . فتنهدت وقالت اذًا انت عارف بهذه الامور فاخبرني لماذا لم تبقَ انطاكية كما كانت كبيرة مثل استانبول ولندرا واجمل منهما كثيرًا . فقال هذه مسألة محار في حلها الحكماء . فقالت انا لست من الحكماء ولكني اعرف حلها . فقال حينذا لو تكرمت جلالتك بحلها لنا . فقالت ما كل ما يحال يُقال . ونظرت الى كفرنيس كأنها تطلب منهُ ان يصدق لكلامها فقال كفرنيس لقد اصابت جلالتها في ما قالت ونطقت بالحق والصواب

وصمتت الملكة مدة وجيزة ثم اشارت بيدها فخرج الجميع من المقصورة ولم يبقَ فيها غير الوزير وتنكرد وفخر الدين وكان الوزير واقفًا فامرتهُ بالجلوس فجلس امامها متربعًا . فنظرت الى الاميرين وقالت لهما اهلاً وسهلاً بكما ايها الاميران فقد دخلتما حصنًا لم يدخلهُ احد قبلكما من غير شعبنا لاننا قوم نحب الانفراد نحن لا نرى ولا نرى ولا مطمع لنا في شيء وغاية ما نطلبهُ ان نبقى مستقلين ونعيش كما عاش آباؤنا من قبلنا . جبالنا وعرة قاحلة واوديتنا لا تنبت شيئًا الاَّ بعد التعب الشديد ولا ذهب عندنا ولا فضة ولا جواهر ولكن عندنا اشياء تعزينا وتسلينا وهي امور يشترك فيها كل واحد منا . ولما بعث الينا دركوش خادمنا الامين يقول ان اميرين من الامراء يرغبان في المجيء الينا والتكلم معنا في بعض المهام كان يعلم اننا لا نسمح بدخول احد بلادنا في امر الانكليز والمصريين والترك والافرنج لانهُ لا قيمة عندنا لشيء من

ذلك . ونحن النصيرية كنا قبل ان عُرف اسم الاتراك والافرنج في بلاد الشام وسنبقى كما نحن ولذلك اقول لكما صريحًا ان دركوش خادمنا الامين اخبرنا انكما لا تطلبان الكلام معنا في المهام السياسية ولا في الامور التجارية ونحوها من حطام الدنيا الفانية بل في امور اخرى اسمى منها بما لا يقدَّر فبعثنا اليكم تسمح لكما بالمجيء الينا راجين ان لا تذكرا لنا شيئًا من امور السياسة والتجارة لانها محتقرة في اعيننا ولا قيمة عندنا الاَّ لكلام الحق

ولما اتمت كلامها نظرت الى كنفريس فاحنى لها رأسهُ كأنهُ يؤمن على كل كلمة قالتها ونظر فخر الدين الى تنكرد يطلب منهُ ان يجيبها على كلامها فتردَّد تنكرد عن الجواب اولاً ثم قال

يظهر لي ولصديقي امير لبنان اننا كنا نضغي الآن الى كلام كلهُ حكمة ونحن نعرف دركوش ولكن الذي اخبرهُ عنا اخبرهُ الصدق فصدق في ما بعث بهِ الى جلالتكِ وهو ان ليس لنا مقاصد سياسية ولا تجارية ولا نحن آتون الى هذه البلاد لمجرد رؤيتها كما يفعل اهل السياحة وانما لنا غرض في الدنيا ونحن نسعى وراءهُ فان العالم استنار من اسيا منذ اول وجودهِ ولا غرابة في ذلك لان الخالق سبحانهُ حلَّ فيها وكلم اهلها لكنها واسفاهُ قد ضعف يقينها الآن بتلك الحقائق السامية التي خضع لها نوع الانسان ولذلك نظن انهُ قد حان الوقت لتنهض من سباتها وتثبت سلطانها على المسكونة ونحن واثقون اننا نفعل ما نفعل بالارشاد الالهي ولكن لا بدَّ لنا من اختيار اصلح الناس لهذا العمل السموي وقد ظننا ان سورية وبلاد العرب البلادين اللتين حلَّ الله فيهما وكلم اهلها من قديم الزمان تأخذان في هذا العمل المجيد وتقومان بهِ فان فيهما امتين لم تزالا على بساطة الفطرة اهالي القفر واهالي الجبال لم تخالطهم شرور الحضارة ولا افسدت عقولهم مفاسد المدن. في الامة الواحدة فرسان لا يشق لهم غبار وفي الثانية مشاة لا تضنيهم المشاق وذلك دليل على انَّ غلاَّب العالم يكونون من هاتين الامتين معًا . ونودُّ ان نغلب العالم وقوَّادنا الملائكة لكي يخضع الناس للسلطة الالهية فتستتبُّ لهم السعادة ويمحق الالحاد السياسي الذي خرب الدنيا "

وأصغت الملكة الى تنكرد وقد كاد الوجد يغلبها الى ان تمَّ كلامهُ فاجابتهُ قائلة " وانا اعتقدُ لمثلكَ بانهُ لا بدَّ من ان تسمو اسيا على غيرها روحيًّا لانها من حين انحطَّت عن مرتبتها لم تعُدْ الحياة نبيلة ولا جميلة كما كانت . وقد ثبت لي مما قلتهُ انكما احسنتما بمجيئكما الى هنا ولكن من تعني بالله وانتَ لتكلم عن بلاد العرب". فقال "اعني بهِ الاله الحي القيُّوم الذي كلم موسى عن جبل سينا في بلاد العرب ومعا آتام الناس على جبل الجلجلة في بلاد الشام "

فقالت وعندنا جبل آخر جبل اولمبس في بر الاناطول هناك اقامت الآلهة وقتًا ما . فقال

اولئك آلهة الشعراء . فقالت كلاَّ بل آلهة الشعب الذين احبوا الشعب واحبهم الشعب

وصمت الجميع برهةً ثم التفتت الى وزيرها وقالت لهُ ان افكار هذين الاميرين دينية طاهرة أفلا يجوز لنا ان نفتح لهما ابواب هيكلنا الجميل الطاهر . فقال بلى ايتها الملكة العظيمة يجوز لنا ان نفتح لهما ابواب هيكلنا . فقالت لِيأتونا اذاً بالاكاليل والآن ستريان ايها الاميران ما لم يرهُ اجنبيٌّ قبلكما وهذا ايضاً من اسيا وهو روحي الهي

ولما قالت ذلك نهضت فنهض الاميران وجاءت الجواري بالاكاليل ووضعن اكليلاً على رأسها واكاليل على رأس تنكرد ونفر الدين وكفرنيس وبعض الخواص ومشت شيرا ورفيقاتها اولاً ثم كفرنيس ورجل آخر ثم الملكة وتنكرد ونفر الدين عن يمينها وعن يسارها ووراءهم جمهور من الحاشية وساروا على هذا النمط الى ان وصلوا الى باب نحاسي قديم الصنعة فانفتح لهم واذا امامهُ سرداب طويل مثل السرداب الذي دخلوا منهُ الى الحصن . ووصلوا من السرداب الى ساحة كبيرة منقورة في الصخر تحيط بها صخور شاهقة من الجهات الاربع ومشوا في هذه الساحة الى ان وصلوا الى رواق قائم على اعمدة ايونية وسلَّم منقور في الصخر فصعدوا عليهِ واذا امامهم كهوف كبيرة هذَّبتها يد الصناعة فصارت منها مقاصير رحيبة ولما بلغوا اعلى السلم رفعت الملكة ومن معها الاكاليل الى السماء واشترك الجميع في الترنيم بصوت رخيم وكانهم كانوا يلفظون الفاظاً تخالف اللغات السورية المعروفة ثم ساروا في الرواق الذي فوق السلم فبلغوا بهواً كبيراً فيهِ من الصور والتماثيل ما يدهش العقول

رأى تنكرد هناك التماثيل البديعة التي قرأ عنها منذ طفوليتهِ في تواريخ اليونان والرومان رأى تمثال المشتري ولحيتهُ البيضاء منبسطة على صدرهِ وقصائب شعرهِ مسدولة على كتفيهِ وهو جالس على عرش من العاج وبمسك صاعقةً باحدى يديهِ وصولجاناً بالاخرى والنسر عند قدميهِ باسط جناحيهِ . وهناك تماثيل الاهات الجمال وعرائس البحر وكل ما تفننت في صنعهِ يد النقاشين والممثلين واخترعتهُ مخيلة العبَّاد والمتزهدين عباد الفضيلة والجمال . فلما امعن نظرهُ فيها صرخ قائلاً "آلهة اليونان" . فقالت الملكة آلهة الدصيرية آلهة اجدادي . ثم قال تنكرد لقد ادهشتني ايتها الملكة حقاً ان في الدنيا غرائب عجائب لا ابدع من هذه المناظر ولا اجمل منها

الملكة — انت تعرف انها آلهة واما رفيقك فلا يعرف ذلك

نفر الدين — اني اشعر الآن كأنها آلهة

الملكة — كيف تعرف ايها الامير انها آلهة وقد ولدت في جزيرة بعيدة في اقصى بلاد الشمال

تكرد — لقد تعلمت ذلك منذ طفوليتي

الملكة — اذاً اصاب دركوش بقوله انك واحد منا . هذا كل ما بقي من انطاكية العظيمة من ابراجها الشاهقة وحراجها المقدسة وجمالها الباهر فانهُ لما ابطل الشعب تقديم الذبائح للآلهة اغتاظت الآلهة منهم وتركت الارض وبقيت بقية منهم على ولاء آلهتها فلجأت الى هذه الجبال وتماثيلها المقدسة معها وهي هنا الى الآن . هذه هي الاشياء التي تعزينا وتسلينا كما قلت لكما قبلاً . وقد فقدنا كل شيء سواها الغنى والمجد والعلوم والفنون زالت كلها من بلادنا ولا تكاد الارض تنبت ما يقوم بمعيشتنا . نلبس لبس الاكراد ولا نكاد نشبع الطعام مثلهم . ولكن اذا تركنا هذه الجبال وغربنا في السهول مثلهم لفقدنا هذه الصور والتماثيل وخسرنا كل ما يرفع نفوسنا الى مصدر الخير والسعادة ويحيي فيها روح الامل بانا سنعود يوماً ما الى مجدنا السابق ويقيننا انهُ متى تمَّ انحطاط اسيا ومُلكت كأس مصائبها واستوفت ما تستحقهُ من القصاص والنقمة يعود الناس الى هذه الآلهة التي جعلت الارض اسعدتها . ولا بدَّ من ان ترحم العباد ثانية وتعود الى الارض التي امست بدونها خراباً . ثم التفتت الى تكرد وقالت لهُ بصوت رخيم هلمَّ معي ودخلت امامهُ الى غرفة فيها تمثالان صغيران قامتهما كقامة الانسان ووقفت امام واحد منهما وهو مصنوع من العاج والذهب وقالت لهُ أتعرف من هذا . فتفرَّس فيهِ وقال هذا اله الشعر والنور ابلُّوس فيبوس . فقالت هذا تمثال الهنا اله انطاكية اله الحراج المقدسة من يستطيع ان ينظر اليهِ ويرتاب في الوهيته

فقال نعم هذا تمثال ايلو الذي كانت تُذبح لهُ الذبائح من الثيران وتسكب السكائب من الخمر والعسل وتقرَّب القرابين من المرّ واللبان . فقالت نعم وانت عارف بذلك كلهِ . ثم قال ومن هذه . فقالت تمثال الهة السوريين تمثال الزهرة المجيدة المعروفة في بلادنا باسم استرتي (عشتروث) وباسمها سموني تبركاً (ستأتي البقية)

نظرٌ

في عناية الأعاجم باللسان العربي

لحضرة الاستاذ سعيد الشرتوني صاحب قاموس اقرب الموارد

هذا بحثٌ لا أتذكر أني رأيت احداً قد نحا نحوهُ او فتح بابهُ في الصحف السيارة والمجلات الجوَّالة على ما لهُ من خطارة الشان وما وراءهُ للقارىء من الفائدة واللذَّة وما فيهِ